زوجات النبي الطاهرات في السيرة النبوية لابن هشام •

عبد الرزاق قاسم الصف
مدرس

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

حين يتجه الدارس إلى مصادر الشريعة الاسلامية الاصيلة لإغناء أحكامها في الاستدلال لايغيب عنه النظر إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم — بعد القرآن الكريم والسنة النبوية عموماً — لما حوته من أنماط حياتية وضاءة في مناحي حياته الشخصية والاجتماعية والادارية وغيرها ؛ لأنها تعطي الأبعاد العملية لآداب الاسلام وشريعته .

ومن الممارسات التي احتوتها السيرة النبوية وأعطت أضواء مشرقة على السلوك الاسلامي العام حياة النبي صلى الله عليه وسلم في بيته ، من زاوية دراسة للشؤون الشخصية لأزواجه (١) الطاهرات أو سراريه (٢).

وقد رايت ان ادرس ماتضمنته سيرة ابن هشام عبد الملك المعامري ت (٢١٣) عن حياتهن لبيان آثارهن في البيئة الاسلامية باعتبارهن صوراً نبوية نقلت إلى المسلمين تراثاً عظيماً من الرسول وأقواله ، وأنهن في موقع طلابه ورواته في بيان الاحكام الاسلامية عن كثب في غالب المجالات الشخصية والتعبدية وغيرهما .

كما بدا لي ان يكون الحديث عنهن حسب تعاقب زواجه بهن لإبراز الآثار المرحلية فيما استدعته حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في الفترتين المكية والمدنية ، وبيان الدوافع الايجابية التي اقتضت تعدد زوجاته ، وأبعاد هذه الظاهرة الاسلامية الخاصة به :

كانت حياة الرسول المكية قد انتهت بهجرته إلى المدينة وهو في السن الثالثة والخمسين وكان في حياته يملك ثلاث زوجات ، وفي حياة المدينة كان له فيها ثمان زوجات ، يضاف اليهن ماكان له من سريات مملوكة :

---

(١) الأزواج : جمع زوج : وهو خلاف الفرد . فيقال للاثنين : هما زوجان . وزوج المرأة بعلها ، وزوج الرجل إمرأته . كما جاء في قوله تعالى (أسكن أنت وزوجك الجنة) البقرة ٣٤ — (ابن منظور : السان العرب ١١٥/٣) .

(٢) والسراري : جمع السرية بضم السين : الأمة التي بوأتها . منسوبة إلى السر بالكسر : للجماع من تغيير النسب (القاموس المحيط للفيروز آبادى ٤٧/٢)
ويقول الزمخشري : تسرى فلان جارية : اتخذها سرية ، وأصل اللفظ من السرو ، بمعنى السخاء في مروءة ، والفعل سرو ، وهو سرى . (أساس البلاغة : مادة سرك).

والسيدة خديجة بنت خويلد كان لها النصيب الأوفر من حياته الزوجية في شبابه وطرفاً من كهولته قضى خمساً وعشرين سنة معها وحدها كأسعد زوج في حياة هانئة . وهي القرشية الشريفة بنت خويلد بن اسد بن عبد العربي ابن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤى ابن غالب بن مهر .

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الاصم بن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي بن بن غالب بن قهر (١) :

وكانت قبل رسول الله عند أبي هالة بن مالك ، أحد بني أسيّد بن عمرو بن تميم حليف بني عبدالدار ، فولدت له هند بن أبي هالة : وزينب بنت أبي هالة وكانت قبل أبي هالة عند عتيق بن عابد بن عبدالله بن عبدالله بن مخزوم فولدت له عبدالله وجارية (٢) :

كانت البداية في تعرّف الرسول صلى الله عليه وسلم على خديجة — رضي الله عنها — حين حرصت على بعث تجارتها إلى الشام بدلالة رجل أمين صادق وإشراف خبير ناصح : وكانت معروفة باستئجار الرجال في مالها . قال ابن اسحاق : « وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مابلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثتْ اليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ماكانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام ، فنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب إلى ميسرة فقال له : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم ،

---

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ ص٢٣٢ ، وحـ٧ ص٥٣٩ .

(٢) المصدر السابق حـ٧ ص٥٣٤

فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي : (١) ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة ، فكان ميسرة — فيما يزعمون — إذا كانت الهاجرة واشتد الحرّ — يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره ، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ماجاء به فأضعف أو قريباً وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعما كان يرى من إظلال الملكين اياه » (٢) .

أما خديجة : وهي المرأة الذكية الواعية فقد أخذت تُعمل العقل في هذا الرجل الأمين الصادق ، الذي أجمعت مكة على أمانته وحسن خلقه ، وقد لمست هي حقيقة أمره بنفسها ، فهل لها أن تظفر بهذه الدرة الغالية من بين أشراف قومها ؟ فقد تقدم إلى خطبتها الكثير منهم فما وجدت نفسها تميل إلى أحد ، فهي ليست طامعة بمال أوراجية شهرة من شرف اونسب بيد انها تأمل ان ترى طلبتها في الحياة الزوجية مع رجل تعرف فيه فضائل الانسان ونبله لذلك أخذت تحدث نفسها بأنها وجدت مطلبها العزيز فلا بأس عليها ان تخطو خطوات جادة في هذا الرجاء . ولئن وجدت نفسها في حيرة واضطراب من ابتدائه في عرض إعجابها به ورغبتها فيه حياء — لاترفعا — فانها لم تتردد بقناعتها انّ هذا الامين هو مرادها في الحياة البيتية اللائقة بها ، فهي وإن بلغت الاربعين من العمر لكنها كانت تملك الجمال والمكانة المرغوبة عند سادات قومها الذين زهدت بهم . لذلك رأت ان تبادئه الرأى وتعرض عليه اختيارها له فارسلت اليه صاحبة لها تعلم فيها الدراية والوفاء تدعى نفيسة فجاءت اليه وسألته بتعاطف ورقة عن حياته : لما ذا لاتهفو نفسك إلى زوجة تسكن اليها فتزيل وحشتك

---

(١) يقول السهيلي إن قول الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة الا نبي ...» يريد : مانزل تحتها هذه الساعة الا نبي ، ولم يرد مانزل تحتها الا نبي ؛ لبعد العهد بالانبياء قبل ذلك ، وان كان في لفظ الخبر : قط ، فقد تكلم بها على جهة التوكيد للنفي ... وهذا الراهب ذكروا أن اسمه نسطورا ، وليس هو بحير المتقدم ذكره (ويريد به الراهب بحير الذى لقبه مع عمه ابي طالب في تجارته إلى الشام من سن صباه) .
(الروض الانف للسهيلي — (٥٠٨ — ٤٨١) حـ٢ص٢٣٦ بتحقيق عبد الرحمن الوكيل — ١٩٦٧ —

(٢) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ص٢٣١ — ٢٣٢ .

وتملأ عليك دنياك بهجة وارتياحا (١) : كان لابد له ان يفكر ويتأمل ملياً ، وان يستشعر حياته منذ صباه إلى الخامسة والعشرين في يتم وتوسط في العيش في بيت عمه ابي طالب المثقل بمسؤولية العيال الكثار ، لكنه ما كان يرى ان يتجاوز هذا العرض الا بالكلمة الصادقة وحسبما عرفه قومه — فقال مبتسماً : مابيدي ماانزوج به .... فقالت نفيسة على الفور : فان دعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ حينئذ أدرك محمد صلى الله عليه وسلم من المقصود بهذا العرض ؟ إنها خديجة بلاريب ، عرفت الوسيطة اللبيبة في سكوته الحيي استئناساً وقبولاً ، فعادت إلى خديجة — رضى الله عنها — تبلغها صورة الموقف الذي لايعوزه الا أن تبادئه الدعوة لخطبتها ، تأملت خديجة حلاوة هذه الصورة ودلالة الحديث بين محمد ونفيسة ، وايقنت انها لاتطيب لها الحياة بسواه . كما انها كانت تلمح في — محمد صلى الله عليه وسلم — استئناساً اليها وتجاوباً معها . يروى ابن اسحاق كلمات دعوتها له قائلا : « وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة مع ماأراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم فقالت له فيما يزعمون : ياابن عم اني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك (٢) في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً واعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً ، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه » (٣).

أبلغ محمد صلى الله عليه وسلم عميه أبا طالب وحمزة بقول خديجة ورغبته بها ، فسارعا إلى تلبية أمنيته وهما في غاية البشر والسعادة بحظ ابن أخيهما . فخرج معه عمه حمزة بن عبد

---

(١) اشار السهيلي إلى هذا الاستئناس في نفس الرسول « أنه قال لشريكه الذى كان يتجر معه في مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة (تبحث عن الأخبار) وهي الكاهنة — كذا قال الخطابي في شرح هذا الحديث ، فقالت له : جئت خاطباً يامحمد فقال : كلا ، فقالت : ولم؟! فوالله مافي قريش امرأة وإن كانت خديجة إلا تراك كفئاً لها ...» ، الروض الانف ج٢ص٢٤٠ .

(٢) (وسطتك) يقول السهيلي في معناها : السطة من الوسط . مصدر كالعدة والزنة . والوسط من اوصاف المدح والتفضيل ، الروض الانف ج٢ص٢٣٧.

(٣) سيرة ابن هشام في الروض الأنف ٢/٢٣٢ .

المطلب – رضي الله عنه – حتى دخل على خويلد بن اسد فخطبها اليه فزوجها ... (١) قال ابن هشام : واصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة(٢) ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها»(٣) وكان عليه الصلاة والسلام عند زواجه بخديجة في سن الخامسة والعشرين. فيقول الطبري : « وبعد السنة التي نكحها فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم هدمت قريش الكعبة بعشر سنين ثم بنتها – وذلك في قول ابن اسحق – في سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ».

مؤازرة خديجة للرسول وتصديقها به : لقد شاءت إرادة الله تعالى ان تكون خديجة أول مؤازر لرسوله في حمل رسالته والايمان بها ، فقد شاركته في مواقفه كلها عند نزول الرسالة الاسلامية، فمنذ كان صلى الله عليه وسلم يسرع الخطا بعد خطاب جبريل له في غار حراء ليجد الاطمئنان في مأمنه الوديع عند زوجته الرؤوم لم تغب عنه في حسن رعايته ، فأخذته بيديها الحانيتين وهي تهتف به في ثقة ويقين حين أخبرها بما رأى وسمع من الوحي فقالت له : أبشر يا ابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ، والله لايخزيك الله ابداً ،إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكلّ ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق (٤) .

---

(١) المرجع السابق ٢/٢٣٢ .

(٢) بكرة : أنثى الابل الفتية التي لم تلد أوقد ولدت بطناً واحدا (ابن منظور : لسان العرب حـ٤ ص١٤٤ – مادة بكر) .

(٣) يقول الطبري فيما ينقله عن الواقدي : إن الذى زوجها للرسول صلى الله عليه وسلم عمها عمرو بن اسد وان اباها كان قد مات قبل حرب الفجار (تاريخ الرسل والملوك للطبري حـ٢ ص٢٨٠) وذكر السهيلي رواية اخرى عن غير ابن اسحاق أن خويلداً كان اذ ذاك قد هلك وان الذى أنكح خديجة – رضي الله عنها – هو عمها عمرو بن اسد ، قاله المبرد وطائفة معه ، فقال ايضاً إن أبا طالب هو الذى نهض مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى خطب خطبة النكاح وكان مما قاله في تلك الخطبة : « اما بعد فإن محمداً ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفاً ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان في المال قل ، فان المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، فقال عمرو : هو الفحل الذى لا يقدح أنفه فانكحها منه ... » كما استشهد برواية الطبري السابقة عن ابن عباس وعائشة (الروض الانف ٢/٣٢٨ – ٣٣٩).

(٤) سيرة ابن هشام في الروض الانف ٢/٢٨٢ .

إن هذا الحدث الجديد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته لم يكن أمراً غير متوقع بل إنها كانت قد عرفت من ابن عمها ورقة بن نوفل مايشير اليه ويتنبأبه ، فقد سمعت منه رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم حين عرضت عليه بعض اوصافه . روى ابن اسحاق صورة هذا اللقاء الاول بين خديجة وورقة فقال : « وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن عبد العزى — وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس — ماذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه اذ كان الملكان يظلانه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقا ياخديجة إن محمداً لنبي هذه الامة ، وقد عرفت انه كائن لهذه الامة نبي ينتظر زمانه او كما قال ، فجعل ورقة يستبطىء الامر حتى متى ؟ (١) .... » .

لذلك فانها لم تفاجأ بما حدثها به الرسول — صلى الله عليه وسلم — في سماعه ومشاهدته لجبريل عليه السلام وبعد ان اطمأنت عليه في مضجعه انبعثت إلى ورقة لتلقاه ثانية لتستعلم حقيقة الامر على إثر نزول الوحي عليه وأمره إياه بالقراءة وحمل الرسالة ، فينقل ابن هشام مقالة الرسول صلى الله عليه وسلم « فاذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في افق السماء يقول يامحمد أنت رسول الله وانا جبريل ، قال : فوقفت أنظر اليه فما أتقدم وما أتأخر وجعلت اصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها ، وانا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى اهلي ، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً اليها ، فقالت : ياأبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لي ، ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : ابشر يابن عم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده اني لأرجو ان تكون نبي هذه الامة (٢) .

إن الحالة النفسية للسيدة خديجة كانت تستدعي الاهتزاز والقلق ازاء هذا الحدث الجلل في حياة زوجها العظيم ولكنها كانت تملك العقل الحصيف الذي يبعث على الاستقرار بما عرفته فيه من استقامة منهج حياته وعزوفه عن معبودات قومه الوثنية ، وهي حين

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف ٢/٢٤١ — ٢٤٢.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٨٢.

أقدمت على بعث رسلها اليه في خلوته بغار حراء كانت في حالتها النفسية كحالة أية زوجة تترقب الاطمئنان على قرينها ، ولكنها كانت ذكية حيث أنها أوصتهم بان لايظهروا له متابعتهم اياه ولايحرصوا على مشاهدته في موقعه لئلا يربكوا عليه حياته الزوجية او يبعثوا القلق في نفسه وقد رأت خديجة ضرورة جديدة في لقاء ورقة يحثها الخوف على أعز مخلوق عندها ويؤنسها الرجاء والامل العريض في كون محمد نبي هذه الامة وهاديها «فاخبرته بما اخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ورقة بن نوفل : قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتيني ياخديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى ، وانه لنبي هذه الامة، فقولي له فليثبت فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبرته بقول ورقة بن نوفل .. » (١) .

وحين تعود خديجة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالبشرى يبادرها بالنبأ العظيم في خطاب الله له بقوله تعالى: (ياايها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولاتمنن تستكثر ولربك فاصبر) (المدثر — ١ — ٧ —) ثم يتبع تلاوته هذه بقوله لخديجة انتهى ياخديجة عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل ان انذر الناس وان ادعوهم إلى الله وإلى عبادته فمن ذا أدعو ومن ذا يستجيب ؟ عندئذ تهتف خديجة به في حماسة وتعاطف صادقين : أنا استجيب يامحمد فادعني قبل ان تدعو أي انسان واني مسلمة لك مصدقة برسالتك مؤمنة بربك ، فكانت أول أهل القبلة استجابة للرسول بمؤازرته وتثبيتاً له في رسالته (٢) .

لم تكتف خديجة بما قدمته من بشارة وتطمين للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنها رأت بثاقب عقلها ان وطأ الرسالة ثقيل عليه ، غامض في مستقبله ، فهو يستدعي الوضوح والامل لتجاوز العقبات النفسية التي تختلج في مخيلته عن صعوبة تغيير أوضاع المجتمع في عقيدته وتقاليده المتخلفة عن مقتضيات العقل والفضائل وضرورة ايجاد المجتمع البديل من هذه الامة العربية المتفرقة ووضعها في الموقع الذي يتناسب ومؤهلاتها الاصيلة في القدرة على قيادة أنفسهم وغيرهم إلى السعادة والرفاه. لذلك اقترحت عليه ان يصحبها إلى ورقة ابن نوفل ليسمع منه بنفسه تفصيل أمره وتوضيح مسيرته في حقيقة ما أوحي إليه ، فكان لقاؤها الثالث هذا خير مطمئن له وآخذ بيده إلى بداية المسيرة الصعبة في تصحيح عقيدة

---

(١) المصدر السابق بنفس الجزء والصفحة .

(٢) تاريخ الطبري حـ٢ ص٣١٧ .

قومه وعاداتهم . وبعد ان استقبلهما ورقة بالبشر والتهنئة بما عرفه في رسول الله من حمل الرسالة وإبلاغ الوحي له بالقرآن الكريم قال له: «يا ابن اخي أخبرني بما رأيت وسمعت ، فاخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الامة ولقد جاءك الناموس الاكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبنه ، ولتؤذينه ، ولتخرجنه ولتقاتلنّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخة (١) ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله » (٢) .

ولم تصل خديجة — رضي الله عنها — بما توسمت به من وسائل التطمين على الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حد القناعة بل حاولت ان تختبر أمر هذا الوحي ، فهل هو رسول السماء ام شيء آخر ، مع ماتعلمه من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وعلم ورقة ، وان ماستفعله هو من وسائل الاطمئنان على زوجها ، وان هذا الاطمئنان مما تهفو إليه النفس الانسانية لارتياح القلب والنفس .

يروى ابن اسحاق عنها انها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أي ابن عم أتستطيع ان تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك ؟ قال نعم ، قالت : فاذا جاءك فاخبرني به ، فجاءه جبريل عليه السلام — كما كان يصنع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخديجة : ياخديجة هذا جبريل قد جاءني ، قالت قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى ، قال فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عليها ، قالت : هل تراه ؟ قال : نعم ، قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمنى ، قالت: فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذها اليمنى فقالت : هل تراه ؟ قال نعم ، قالت: فتحول فاجلس في حجري ، قالت فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها ، قالت: هل تراه؟ قال : نعم ، قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ، ثم قالت له : هل تراه ؟ قال : لا قالت : يا ابن عم اثبت وابشر ، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان » (٣) :

---

(١) (يافوخ) وهو ملتقى عظم مقدم الرأس ومؤخره وجمعه يوافيخ (ابن منظور : لسان العرب حـ٤ص٣٤ مادة يفخ)

(٢) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ص٢٨٢ — ٢٨٣.

(٣) المصدر السابق حـ٢ص٣٨٣ — ٣٨٤ وينظر تاريخ الطبري حـ٢ص٣٩٣ .

ولقد كرم الله تعالى خديجة ورفع مقامها بفضل سبقها إلى الأسلام وتصديقها برسوله فكانت خيرسلوى وايناس له وكان يجد في بيته مايلطف عليه المتاعب ويهون عليه مضايقات المعاندين بتثبيتها إياه وتصبيره حتى هانت عليه الصعاب وسهلت أمامه كل العثرات . روى ابن اسحاق في تكريمها قول الرسول صلى الله عليه وسلم: أمرت ان ابشر خديجة ببيت من قصب لاصخب فيه ولا نصب :

ويفسره ابن هشام بقوله : القصب اللؤلؤ المجوف ، وأضاف رواية أخرى بأن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرىء خديجة السلام من ربها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياخديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك ، فقالت خديجة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام (١) .

وقد ثابرت خديجة في مسيرتها الصادقة بمؤازرتها للرسول صلى الله عليه وسلم حتى بلغ فيها الجهد والصبر حداً مضنياً كان آخره ماواكبت فيه الرسول وأصحابه في محنة مقاطعة قريش للمسلمين وعزلهم في شعب أبي طالب ،وكان أشد ماعاناه الرسول صلى الله عليه وسلم من هموم وأحزان بسبب ما أصيب به من فقد خديجة وأبي طالب فحرم الحياة الهانئة والحماية من تعديات السفهاء ، وغابت عنه بشاشة الحياة وبهجتها بوفاة السيدة أم أولاده . يقول ابن اسحاق : « ان خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائب بهلك خديجة ،وكانت له وزير صدق على الاسلام ، يشكو إليها . وبهلك عمه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره : ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجره الى المدينة بثلاث سنين ... » (٢) فرضي الله عن خديجة التي واست رسول الله صلى الله عليه وسلم في مالها ونفسها ، وكانت له وللاسلام خير مثبت وناصر حتى لبت نداء ربها في الخامسة والستين من العمر ،فحزن عليها أشد الحزن حتى سمي عام وفاتها عام الحزن وكان صلى الله عليه وسلم يكرم خديجة بعد وفاتها بصلة صديقاتها أو بعض أهلها . ويتفقد أحوالهم ،وكان يتشوق إلى كل مايعيد اليه الذكرى بخديجة . «ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلب الوسول الذي كان يكثر ذكر فضائلها واخلاصها، أقبلت «هالة» أخت خديجة لزيارة المدينة وسمع الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ص٤١٦ .

(٢) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٤ص١٤ ، وينظر الروض الانف حـ٧ص٤٦٩.

صوتها في فناء بيته ،وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ، فهتف خافق القلب — اللهم هالة ! فما ملكت عائشة نفسها ان قالت : ماتذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر ، أبدلك الله خيراً منها ؟ ! فتغير وجهه عليه الصلاه والسلام وزجر عائشة غاضباً . والله ماأبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد .... » (١) .

وهكذا قضت السيدة خديجة فترة الرسالة المكّية بايمان راسخ وصبر على المحن والارزاء حتى كانت في سمع النبي ونظره تملك عليه حياته كلها (٢).

أولادها من الرسول ثلاثة بنون : وهم القاسم — الذي كان يكنى به — ثم الطيب ثم الطاهر. وأربع بنات : هن رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة. وقد توفي ابناؤه قبل الاسلام، أما بناته فكلهن أدركن الاسلام واسلمن وهاجرن معه (٣) .

وبعد أن غابت السيدة خديجة عن بيت الرسول صلى الله عليه وسلم تركت خلفها همومه وأحزانه ،اصبح بيته مع بناته بحاجة إلى من يتولى أمرهن ليستطيع التفرغ إلى مهام رسالته ، وكان الصحابة يحسون بحاجة الرسول ويلتمسون لها الفرج. لذلك كانت كلمة الصحابية الطيبة خولة بنت حكيم السلمية (٤) في موقعها حين قالت له بتلطف : « يارسول الله كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! فأجاب : أجل، كانت أم العيال وربة البيت ، فاطرقت خولة ملياً ثم أقبلت عليه باقتراحها أن يتزوج ، حينئذ عاد بالذكرى إلى نفيسة التي عرضت عليه الزواج بخديجة ، وهو الآن يرى خولة في موقع نظير لها ، وعاد اليها وهو يقول في أسى واكتئاب — من بعد خديجة ؟ ! وكأنه يريد أن يقول : لايمكنني أن أرى من يقوم مقامها إلا أن يشاء الله ولو بقسط مما عرفته فيها من جهاد وتعاطف. أجابت خولة للتو : عائشة بنت أحب الناس اليك، لم يتردد الرسول من هذا العرض لكنه استدرك قائلا : لكن عائشة صغيرة ، فمن للعيال ؟ إلا أن خولة الذكية كانت قد هيأت بفكرها لهذا العرض ورصدت ماينا سب الرسول في حياته ، لذلك قالت : سودة بنت زمعة القرشية المهاجرة.

---

(١) السمط الثمين ص١٤ وينظر الروض الانف حـ٧ص٥٦٩

(٢) الرسول في بيته : عبد الوهاب مودة — المكتبة الثقافة (٣٢) سنة ١٩٦١ ص١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ص٢٤١ .

(٤) موسوعة آل النبي : عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ص٢٣٤ — دار الكتاب العربي بيروت — ط١ — ١٣٨٧ — ١٩٦٧.

وكان الرسول يعرف هذه السيدة الفاضلة التي كان لها فضل الهجرة إلى الحبشة وترملت بوفاة زوجها بعد عودته إلى مكة .

فاطمأن لهذا الاختيار لأنه يعلم قدر هذه السيدة الطيبة، لذلك قرر أن يأذن لخولة بخطبة ماعرضت عليه . وحين تسامعت المدينة بهذه المبادرة السارة غمرتها الافراح والبشرى، واصدقها الرسول صلى الله عليه سلم اربع مائة درهم .

وسودة بنت زمعة بن قيس بن عبدشمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حل بن عامر بن لؤي ، القرشية المهاجرة مع زوجها وأخيها وبني عمومتها الثمانية الذين خرجوا إلى الحبشة حفاظاً على دينهم وخلاصاً من أذى المشركين . وحين اقترحتها خولة زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم لم يتردد في أن يمد يده الرحيمة اليها فيسند شيخوختها ويهون عليها الذي ذاقت من نكد الحياة والصبر على الايمان ثم الهجرة التي انتهت بالعودة إلى مكة ولكن بفقد الزوج المهاجر الصابر . وكانت سودة تعرف انها بهذا الزواج قد حازت الحظ الوافر من تقدير الرسول وعطفه ، وانه لم يرغب بها باعتباره رجلاً وهي في سن الشيخوخة، وعلمت بأنه قد أكسبها شرفاً عظيماً بانتسابها اليه وتكريمها بوصف أم المؤمنين .

وكانت سعيدة بحياتها في بيت النبوة ، وامتزجت عاطفتها الصادقة مع بنات النبي بخفة الروح وملاحةالعبارة ،وهي تتيه ابتهاجاً حين يبتسم الرسول صلى الله عليه وسلم من مشيتها — وكانت ثقيلة الجسم — وقد أعادت إلى بيت الرسول أنسه وبهجته فشغلته عن وحشته ،واحسنت خدمة بناته ،وكانت فيها بشاشة وبساطة ،قالت له مرة : « صليت خلفك الليلة يارسول الله ،فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم ! » فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكاً (١). وكانت على شيء من السذاجة والتسرع مع قلب سليم وايمان صادق . روى ابن اسحاق في شأن أسرى بدر فقال : « قُدِم بالاسرى حين قدم بهم وسودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب . قال : تقول سودة : والله اني لعندهم إذا أتينا فقيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم ، قالت : فرجعت الى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وإذا أبو يزيد سهيل بن عمرو في ناحية الحجرة ، مجموعة يداه إلى عنقه

---

(١) موسوعة آل النبي ص٢٤٩ .

بجمل ، قالت : فلا والله ماملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد كذلك أن قلت : أي أبايزيد أعطيتم بأيديكم ألا مُتُّم كراماً، فوالله ما أنبهني إلا قول رسول الله صلى وسلم من البيت: ياسودة أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ قالت : قلت يارسول الله : والذي بعثك بالحق ماملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه ان قلت ماقلت » (١) .

بقيت سودة هانئة العيش في بيت رسول الله عليه وسلم حتى بعد زواجه بعائشة ، وكانت تتحرى مرضاة العروس الشابة وتعلم أن لها برسول الله الحق دونها ثم وفدت على بيت الرسول زوجات أخريات منهن حفصة وزينب بنت جحش وام سلمة وغيرهن وحين وجد الرسول في سودة هموم الشيخوخة وانها لاتبلغ مستوى ضرائرها فقد أشفق عليها ورأى أن يجعل الامر اليها في اختيار حياتها ، فما كان منها إلا أن تقول – وهي مدركة إشفاق النبي عليها وتقديرها حقها إن رغبت في الاستقلال بحياتها –بضراعةواحترام: امسكني ، والله مابي على الازواج من حرص، ولكني أحب أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً لك »(٢) .

ثم لاح لها أن تطيب قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فتعلمه أنها قد قررت استغناءها عما لغيرها من الازواج اكتفاء بانتسابها إلى بيت النبوة وانصرافاً إلى العبادة فقالت : يارسول أبقني وأهب ليلتي لعائشة . وكانت وفاتها في آخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣).

أما عائشة بنت أبي بكر فانها كانت مطلب خوله بنت حكيم لتخطبها لرسول الله صلى عليه وسلم والتي جاءت إلى ابي بكر قائلة : أرسلني رسول الله أخطب له عائشة ، فقال : وهل تصلح له ؟ انما هي ابنة أخيه ، فنقلت للرسول مقالته فقال لها : ارجعي اليه فقولي : أنت اخي في الاسلام وانا اخوك وابنتك تصلح لي ، فابلغت ابا بكر بقوله فاجاب : ادعي لي رسول الله فحضر الرسول وكان سعيداً غاية السعادة بهذه المصاهرة . وقد تم زواجه بها في مكة ، ولم يبن بها الا بالمدينة وهي بنت تسع او عشر سنين ، ولم يتزوج بكراً غيرها ... وأصدقها راسول الله صلى الله عليه وسلم اربع مائة درهم (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق الانباري وشلبي ج٢ص٦٤٤ .

(٢) الموسوعة ص٢٤٢ عن ابن حجر في الاصابة ١١٧/٨ والسمط الثمين ص١٠٣ .

(٣) السمط الثمين ص١٠٥ .

(٤) سيرة ابن هشام في الروض الانف ج٧ ص٥٣٤ .

وحين اطمأن الرسول بعد هجرته باشهر معدودات رأى بانه بحاجة إلى قرينته الجديدة العزيزة عائشة بنت احب الناس اليه ابي بكر الصديق الذي كان ينتظر الاشارة من الرسول بزفافها اليه . وتتحدث عائشة عن عرسها فتقول : « جاء رسول الله بيتنا فاجتمع اليه رجال من الانصار ونساء ، فجاءتني امي وانا في ارجوحة بين عذقين فانزلتني ، ثم سوت شعري ومسحت وجهي بشيء من ماء ثم اقبلت تقودني حتى اذا كنت عند الباب وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي ، ثم ادخلتني ورسول الله جالس على سرير في بيتنا فاجلستني في حجره وقالت : هؤلاء اهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك ، ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى لي رسول الله في بيتي ، فانحرت علي جزور ولا ذبحت شاة ، وانا يومها ابنه تسع سنين ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٢) .

وكانت عائشة بين زوجات النبي أشدهن غيرة عليه ونضالا في سبيل الأستئثار بحبه وعذرها أنها اول من تفتح لها قلبه بعد خديجة ، وأنها وحدها التي تزوجها بكراً ، وانها عائشة بنت ابي بكر الصديق (٣) . وقد روعت عائشة حين رأت الرسول يتزوج معها اخريات ، فقد دخلت إلى بيت النبوة حفصة بنت عمر بن الخطاب ، فناصفتها حياتها الزوجية ، وتلتها زينب بنت جحش ثم ام سلمة وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حيي وام حبيبة — رضي الله عنهن .

فهل كان بامكان عائشة ان تنسلخ عن فطرتها في كراهية الضرة للضره ؟

وهذا الطبع لاينفك عن المرأة في الحياة الزوجية ، فما كان عليها إلا ان تفكر بحليفة منهن تتودد اليها ليكونا كفة راجحة في الخصومة ، فوجدت في حفصة بنت عمر تجاوبا واستعداد لنصرتها وقد حصلت منغصات كثيرة للرسول صلى الله عليه وسلم بسبب هذه الغيرة والمنافسة بين الضرائر ، وكان فيها ان تواطأت عائشة وحفصة ، وسودة بنت زمعة معهما ببساطتها ومداراتها لهما ، على زينب بنت جحش حين خرج من عندها رسول الله صلى الله عليه

---

(١) السمط الثمين ص٣٢ .

(٢) كانت عائشة تباهي بأبيها رضي الله عنه لما هو معروف من ثناء الرسول عليه وتفضيله على الناس . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لو كنت متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، ولكن أخي وصاحبي » فتح الباري لابن حجر حـ٨ ص١٨ .

وسلم فقلن له على انفراد هل أكلت عندها المغافير؟ – وهو ثمر حلو كريه الرائحة – فقال الرسول لعائشة : سقتني زينت شربة عسل ، فشعرت سودة بمرارة المؤاطأة ، وكأنها ارادت ان تبرر الدعوى بما يخفف دمعها عليه فقالت : رَعَتْ نحله العرفط – الشجر الذي يثمر المغافير – لكن الرسول صلى الله عليه وسلم تألم من هذه المتابعة وحرم على نفسه شرب العسل عند زينب ، وندمت سودة على مافعلن فقالت لهما : سبحان الله ! والله لقد حرّمناه ! (١) :

وما انفكت جبهة الخصومة في عداء الضرائر تعمل عملها حتى تعددت الاحداث المثيرة بقيادة عائشة وحفصة المندفعتين بخطوة المركز الابوي عند الرسول . وهذا الاندفاع جزء من الطبع الذي خلقت عليه المرأة والذي لاتستطيع إغفاله او كتمانه الا لماماً ، وهما يعلمان كما يعلم الصحابة جميعاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم يتزوج عن حكمة وإن لم تبعد بشريته عن رغبته ، ولكن ضعف النفس عند المرأة إزاء احتمال وجود منافستها الضرة يجعلها لاتطيق صبراً ولا ترى صواباً أحياناً (٢) . فهي حين تكيد خصيمتها تنتصر لفطرتها ووجودها ولو أدى ذلك الى ندم واعتذار .

علمت عائشة ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عزم على التزوج من « اسماء بنت نعمان الكندية » وظنت انها بجمالها ستشغل الرسول عنها ، فدعت اليها حفصة التي تحرص على رضاها واتفقتا على ان يقولا لهذه الزوجة كلمة تتودد بها إلى الرسول في لحظة دخوله عليها وانها ستحظى عنده بنصيب التكريم ، فنَصحتها ان تقول كلمة الاستعاذة بالله اذا دخل عليها ، فاستجابت هذه المسكينة الساذجة ، واستعاذت بالله حين دخل عليها ظناً منها أنها تستجلب حبه ورضاه ، فصرف الرسول وجهه عنها وقال: «ولقد عُذتِ بمعاذ » ثم غادرها وامر ان تلحق باهلها ، وحين استوضح اهلها الامر وابلغوه للرسول لم يملك نفسه ان قال وهو يبتسم : « انهن صواحب يوسف وإن كيدهن عظيم » (٣) .

وتتكرر الادوار من الخصومة بين الضرائر ، وتتعداها إلى الغيرة من السوادي ايضاً فمارية القبطية هي ام ابراهيم ابن النبي والتي كانت الوحيدة التي انجبت منه هذا النجل

---

(١) السمط الثمين ص٨٠ – ٨١ .
(٢) موسوعة آل النبي ص٢٦٧ .
(٣) المرجع السابق ص٢٧٠ .

الحبيب : وكانت قد حظيت بحب الرسول وعطفه فجاءت تلتمس لقاه الرسول في امرها فخلا بها في بيت حفصة ، فهاجت حفصة حين عودتها عندما شاهدت الرسول مع مارية في حجرتها ، فهدأ روعها وحرص على استرضائها وهي تبكي ، فقال : انه حرم مارية على نفسه ان اقتربها واوصاها ان تكتم أمره . ولكن الغيظ في قلوب الضرائر يأبى الا أن يعلن عن دوافعه وانتصاراته فحدثت عائشة بالامر ثم تناجيا به مع سائر امهات المؤمنين. وينقل القرطبي رواية الدار قطني عن ابن عباس عن عمر قال : « دخل رسول الله صلى عليه وسلم بأم ولده مارية في بيت حفصة ، فوجدته حفصة معها — وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت له : تدخلها بيتي اما صنعت بي هذا من بين نسائك الا من هواني عليك ، فقال لها : «لاتذكري هذا لعائشة ، فهي عليّ حرام إن قربتُها ، قالت حفصة : وكيف تحرم عليك وهي جاريتك ؟ فحلف لها ألاّ يقربها : فقال النبي صلى الله عليه وسلم لاتذكريه لأحد فذكرته لعائشة : فآلى لايدخل على نسائه شهراً فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة فانزل الله عز وجل « لم تحرم ما أحل الله لك » الآية (١) . ومن جو هذه الحادثة التي اضطرمت بسببها الاحقاد وتمردت الزوجات على موقف الرسول اتخذ هذا الموقف المتشدد في ان اعتزلهن شهراً حتى نزل القرآن الكريم في أمرهن ، وبموقفه في اعتزالهن قطع عليهن مواقف اللجاجة والمضايقة له بعد ان لم تنفع معهن النصيحة. وحين تسامع الصحابة امر الرسول معهن وبلغ بهم الحزن والأسى على الرسول حداً عظيماً حتى جاء ابو بكر وعمر ثائرين وهما يهددان ابنتيهما بسوء المنقلب ووغامة العاقبة. وعادت الزوجات الكريمات إلى الرسول يعتذرن ويأسفن من سوء ماصنعن ويلتمسن من الرسول العفو والغفران ولكن الرسول بقي في هجره لهن حتى نزلت الآيات الاولى الكريمة من سورة التحريم (يأيها النبي لم تحرم ماأحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم : قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم. واذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما انبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير . إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربّه إن طلقكن ان يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات

(١) الجامع لأحكام القرآن : محمد القرطبي (٦٧١ — ١٢٧٣) جـ١٨ ص ١٧٩ مطبعة دار الكتب ١٣٨٥ — ١٩٦٥ .

مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا) سورة التحريم (١ – ٥) :

وهكذا كانت هذه المحنة لزوجات الرسول صلى الله عليه وسلم خير درس عملي في موعظتهن وتوجيههن إلى ما ينبغي ان تكون عليه حياتهن في خدمة الرسول وحمل رسالته وتبليغ وصاياه : ووعت نساء النبي هذا الدرس السماوي وعلمن انهن في موقع المسؤولية الاسلامية كما ارادها لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن السيدات اللواتي اختارهن الله زوجات لرسوله صلى الله عليه وسلم كن في نوازعهن البشرية كسائر النساء ، ولكنهن حين عشن في بيت النبوة وجدن النحول العريض في حياتهن : كان لابد لهن ان يتفاعلن في جو البيت النبوي تفاعلا ايجابياً ، وبمستوى القدوة والمثال الاعلى في التجاوب لتعاليم السماء . ولو اننا نلاحظ انهن لم يستطعن ان يكن قاصرات لميولهن وعواطفهن التي طغت أحيانا على سلوكهن فكانت هذه الميول والرغبات سبباً في متاعب وغصص في حياة الرسول البيتية حتى اندفع بعضهن – بما فطرن عليه من الغيرة النسوية – إلى خصومات بينهن ،وكان الفصل فيها للقرآن الكريم ، وحلم النبي وصبره :

إن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كن قدراً مختاراً من الله تعالى لنبيه تعهدهن القرآن بالرعاية والتوجيه والبراءة من الآثام ، وكن في مواقع المسؤولية في فهم الرسالة وتبليغها ورواية الحديث النبوى في التشريع والآداب إلى الامة الاسلامية ، وكانت حياة الرسول الزوجية الخاصة غير منفصلة عن شخصية النبوة ، فهو يتلقى بين حين وآخر توجيهات السماء في شؤونهن الزوجية لكي يكن في المنهج الذى يتفق مع رسالة النبي صلى الله عليه وسلم :

فالسيدة عائشة ينتزل القرآن في براءتها من فرية أصحاب الإفك والسيدة زينب بنت جحش يتولى القرآن تزويجها من الرسول صلى الله عليه وسلم . وتخيير نسائه بين الصبر على شظف العيش وخشونته أو مفارقة الرسول لهن يأتي به النص القرآني الجليل (يايها النبي قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) (سورة الاحزاب ٢٨ – ٢٩):

وهذا فضلا عن الاشراف الالهي والرقابة المباشرة التي احاط بها القرآن أزواج النبي ليعدهن نماذج مثالية لأزواج المؤمنين ، وزادهن تكريماً وتفضيلا حين أنزلهن منزلة

أكرم مخلوق في نفس كل مؤمن وهي مكانة الام الحانية التي لايزيد على فضلها شغل في حياة كل انسان بعد خالقه : (النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وأزواجه أمهاتهم) (الاحزاب–٦) كما أرشدهن إلى منهج الحياة ليتأسى به كل المؤمنات لانهن قد تميزن عن سواهن ببيت النبوة ورفعة رتبته بالتطهير والتقدير (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (الاحزاب – ٣٣) ولذلك فليس بدعاً ان يخاطبهن الله تعالى بقوله : (يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً) (الاحزاب – ٣٢) .

وبفضل الرعاية الالهية لبيت النبي في توجيههن ليكن في موضع القدوة الحسنة لأخواتهن النسوة تحققت منافع اجتماعية عالية في توثيق عرى الاسرة المسلمة وبقائها السليم .

حادثة الإفك : كان سبب حديث الافك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عزم على غزو بني المصطلق في السنة السادسة ، فاقترع بين نسائه ، فكان السهم لعائشة – رضي الله عنها – فصحبته هانئة سعيدة ، وحين عادت الغزوة ظافرة وافق مبيتها قبل المدينة بمرحلة فبات الجيش ثم ارتحل صباحاً ، وكانت السيدة عائشة قد فارقت هودجها قبيل الصباح لقضاء حاجة ، فتأخرت عن اللحاق بالجيش الذي نفر بالارتحال ومعه ناقة السيدة عائشة بهودجها المرافق له ، واعتقاد الموكل برحلتها أنها فيه .. وكان انشغالها بفقد عقدها الذي افتقدته فذهبت تبحث عنه ولم تعد إلا بعد ارتحال الجيش . يقول ابن هشام عنها بروايتها : «خرجت لبعض حاجتي ، قبل أن يؤذن في الناس بالرحيل ، وفي عنقي عقد لي فيه جزعُ «ظفار» – مدينة باليمن – فلما فرغت إنسل من عنقي ولا أدري ، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده ، وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت اليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم – وأنا بعيدة – فرحّلوا بعيري وأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه – إذ كنت خفيفة لم يثقلني اللحم – فاحتملوا الهودج فشدّوه على البعير ولم يشكوا أني فيه ، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر ومافيه من داع ، ولا مجيب ، قد انطلق الناس . فتلففّت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلي ، فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادي فأقبل حتى

وقف عليّ – وقد كان يراها قبل أن يضرب عليها الحجاب – فلما رآني قال : – إنا لله وإنا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ماخلفك يرحمك الله؟ ! فما كلمته ... ثم قرب البعير فقال : اركبي ،واستأخر عني ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما أفتقدت حتى أصبحت ونزل الناس وطلع الرجل يقود بي »(١) .

وانتظر الرسول وصحبه ساعة من نهار حائرين قلقين حتى بدت من بعيد راحلة السيدة عائشة يقودها صفوان بن المعطل ، فاطمأن الرسول صلى الله عليه وسلم ان وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفاً ، وعرف أنه حدث من قدر الأسفار ، لكن أهل الاهواء من المنافقين صاروا يلفقون الريب والشكوك بزعامة عبدالله بن ابي سلول الحاقد على الرسول فنسجوا حول هذه الحادثة ماأرادوا من افتراءات ، وقد بلغ الاتهام والتشهير أسماع الرسول صلى الله عليه وسلم وابي بكر ، ولم يدر أبوها مايفعل وهو كرسول الله حائر غاضبٌ واجم ، وعائشة مريضة لاتجد ما عهدته في الرسول من حنان وتلطف. وقد اضطرها المرض إلى الانتقال إلى بيت أبيها لتكون امها ساهرة على تمريضها . ورسول الله يعلم في قرارة نفسه أنها ضحية اتهام ظالم حاقد وان الله ابتلاها به فلعلها تفيد منه عظة وفهما :

حتى إذا ماضاق ذرعاً رسول الله بهذر المفترين واتهام الطاعنين المرجفين اضطر إلى تنبيه الناس وبخاصة فجاج العقول وسذاجهم فقال : « ياأيها الناس ، مابال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق » (٢) ! وتشاء إرادة الله تعالى أن يؤجل كشف هذه الغمة والاحزان عن الرسول فهو لايعلم من الغيب إلاماعلمه اياه ، لذلك نجده يتوجه إلى أقرب الناس اليه فيستشيره في أهله ، فيسأل أسامة بن زيد فيقول له أسامة : « يارسول الله أهلك ، ولانعلم منها إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل » وأما علي – رضي الله عنه – فيقول : يارسول الله : النساء كثير ، وانك قادر على أن تستخلف ، وسل الجارية فانها ستصدقك ، فتقول الجارية بريرة : والله ما أعلم إلا خيراً ، وما كنت أعيب على عائشة

---

(١) سيرة ابن هشام ج٣ص٣١٩ – وينظر السمط الثمين ص٦٣ – ٦٤ .
وتنظر موسوعة آل النبي ص ٢٧٤ – ٢٧٥.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ص ٦٧ وينظر السمط الثمين ٦٤ .

شيئاً إلا أني كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه ، فتأتي الشاة فتأكله ، ولم تهدأ نفس الرسول صلى الله عليه وسلم واهله وأصحابه إلا بعد أن جاء الفرج الالهي في براءة السيدة عائشة حين نزول الوحي على الرسول وهي في بيت أبي بكر ليعلن طهارتها وبراءتها ، وتلا الرسول آيات الله في سورة النور على أبي بكر وعائشة ثم على المسلمين جميعاً (إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين) سورة النور ١١ — ١٢ أما الذين تولوا أكبر الافتراء والتشهير والطعن والقذف فقد نالوا عقابهم (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبداً ،واولئك هم الفاسقون) النور — ٤ — وعادت السيدة عائشة الى موقعها في بيت النبي وهي تباهي ببراءة الله لها ، ورسول الله فخور بها ، وكان لها الحظ الاوفر من حياة الرسول في بيتها حتى وفاته عندها :

كما بقيت السيدة عائشة وهي تحفظ للشريعة الغراء سجلا ضخماً من تراث النبوة، وتشارك في كل المواقف التي ترجو فيها خدمة الامة وعاشت إلى عام ثمانية وخمسين وهي ابنة ست وستين سنة — واوصت أن تدفن بالبقيع مع صواحبها أمهات المؤمنين (١) رضي عنهن :

أما بقية زوجات النبي الطاهرات فقد بنى بهن الرسول صلى الله عليه وسلم في دار الهجرة ،وكانت هناك ظروف من المنافع والحكم تشكل أسباباً داعية للاقتران بهن، فهو في المدينة قد بدأ حياة الدولة الاسلامية وصار يتلقى نتائج ممارساته الايجابية وانعكاساتها على المشركين في مكة ومعاهدتهم من اليهود الذين اتفقت كلمتهم على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم :

وفي هذه الفترة كان يتحسس باحوال أصحابه وحياتهم الخاصة أيضاً لأنها تكون عوامل الصلات المتينة في مجتمعه الذي يحرص على بنائه على أسس التواصل والتعاون وكان من أقرب أصحابه اليه عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وزيره الثاني وموضع ثقته

---

(١) السمط الثمين ص٨٢ .

واهتزازه مع أبي بكر: وكانت ابنته حفصة قد اصيبت بفقد زوجها « خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي السهمي القرشي » الذي شارك في غزوتي بدر وأحد، ومات بعد غزوة أحد بقليل : وقد نال هذا المصاب من عمر وصعب عليه أن يرى ابنته الشابة في ترملها البائس .وقد لمح رسولُ الله في عمر هذا المصاب ،وكان يرى في حفصة نباهة وذكاء وإخلاصاً، وعرف في عمر أنه يرجو أن يظفر بزوج لابنته يليق بها وبه . فقد كان لم ير بأساً أن يعرض كآبته وحزنه على صاحبيه العزيزين أبي بكر وعثمان ، فوجد لديهما المواساة والتعبير ، وكان يترقب من أحدهما يبدي رغبته بالتزوج بها، إكراماً له ولها (*).

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فانه كان يلمح هذه اللوعة التي تحز في قلب عمر حين يدخل اليه فيشكو له مايعانيه من صدود صاحبيه فيلقاه الرسول ببشاشته المعهودة فيطيب نفسه قائلاً « يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة » (١)

وحينئذ يتقدم أبو بكر إلى عمر بالتهنئة، ويسارع عمر إلى ابنته حفصة يحمل اليها البشرى برغبة الرسول بها زوجة له .

وباركت المدينة لعمر ليكون صهر الرسول ، كما وباركت لعثمان بعد قليل زواجه من بنت الرسول أم كلثوم ، وكان زواج الرسول بحفصة في السنة الثالثة للهجرة وأصدقها اربع مائة درهم (٢) .

وعاشت أم المؤمنين حفصة حياتها الاولى في معترك الغيرة وتنافس الضرائر مع عائشة في أول عهدها ، ثم وافقتها بعد أن وفدت إلى بيت النبي زوجات أخريات ولم تهدأ حياتها إلا بعد أن نزل القرآن بسورة التحريم التي أعادت لهن برد الأمن من غضب الرسول وعزمه على مفارقتهن حين تآمرن عليه في تعاطفه مع سريرة مارية أم ابراهيم.

وكانت أم المؤمنين حفصة بعد هذه المحنة خير معتبر وأكثر ماتكون انصرافاً إلى عبادتها وعنايتها بحياة الرسول وتوجيهاته .كما كانت بعد وفاة الرسول أمينة على وديعة

(*) اما ابو بكر فقد أمسك عن الجواب لأنه كان يعلم ان الرسول صلى الله عليه وسلم يرغب بحفصة ، ولم يفصح له بالامر لأنه لم يأذن له الرسول ببيان رغبته بعد . واما عثمان فقد توفيت زوجه رقية ولما يأنس إلى اختيار اخرى .

(١) السمط الثمين ص٨٤ .

(٢) سيره ابن هشام في الروض الانف ج٧ص٤٣٦ .

القرآن الكريم الذي جمعه ابو بكر واودعه عندها حتى أخذه عثمان فنسخ منه النسخ الاربع، وعاشت إلى نهاية عهد الخلفاء الراشدين وبلغت الستين من العمر (١).

وفي السنة الرابعة من الهجرة كان زواج الرسول بزينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها بهم ورقتها عليهم. أصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع مائة درهم، وكانت قبله عند عبيدة بن عبدالمطلب بن عبدمناف (٢) وقد رغب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إكراماً لها بعد استشهاد زوجها في غزوة أحد. ولم يدم مقامها في بيت النبوة بل توفيت بعد زواجها بثمانية أشهر.

ومن الزوجات الطاهرات أم سلمة بنت أبي امية بن المغيرة المخزومية واسمها هند، وكانت قبله عند أبي سلمة عبدالله عبد الاسد) فولدت له سلمة وعمر وزينب ورقية (٣)، وبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر شوال من السنة الرابعة (٤) وكان ابوها معدوداً من اشراف قريش وسادتها ، واشتهر بلقب « زاد الركب » حيث كان يحمل مؤنة السفر لكل من يرافقه في سفرة كرماً وجوداً .

وزوجها السابق عبدالله — ابو سلمة — الصحابي الجليل والفارس الشهير هو ابن عمة الرسول « برة بنت عبدالمطلب » وهو اخو الرسول صلى الله عليه وسلم من الرضاعة حيث ارضعتهما « ثويبة » مولاة ابي لهب (٥). وكان لها مع ابي سلمة ثبات في الايمان وصبر على البلاء في الدين . وهاجرت ام سلمة مع أبي سلمة إلى (الحبشة) ، وبعد عودتهما منها الهجرة مع الاصحاب إلى المدينة فمنعها قومها « بنو المغيرة » من اللحاق بزوجها واغتاب قوم زوجها ولدها سلمة منها فعاشت زهاء سنة في مرارة القسوة واللوعة حتى رق لها قومها وسمحوا لها بلحاق بزوجها (٦).

---

(١) السمط الثمين ص٨٦ .

(٢) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٧ص٤٣٩ والسمط الثمين ص١١٦ .

(٣) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٧ص٤٣٤ .

(٤) تاريخ الطبري حـ٣/٤٢ .

(٥—٦) سيرة ابن هشام بتحقيق الانباري وشلبي حـ٢ص٤٦٩ .

وقد أبلى هذا لزوج المجاهد بلاء حسناً في خدمة الاسلام وشارك في غزوتي بدر واحد، وقاد سرية اللحاق بالمشركين بعد غزوة احد ، ولم يبرأ من جرح اصيب به يوم احد حتى وافاه الاجل – رضي الله عنه ... وقد حضره النبي وهو على فراش موته ، وبقي إلى جانبه يدعو له بخير حتى فارق الحياة، فاسبل بيده الكريمة عينيه وكبر عليه تسع تكبيرات حتى قيل له : يارسول الله أسهوت أم نسيت ؟ فاجاب : لم أسْهُ ولم أنسَ ، ولو كبّرت على ابي سلمة الفاً كان آهلاً لذلك (١).

كانت أم سلمة موضع احترام ونظر كبار الصحابة ، لكنها رفضت الزواج ممن تقدم اليها ، ولكنها حين تقدم اليها الرسول تمنت ان يكون لها هذا الشرف العظيم ، وهي أم الصغار ، وقد جاوزت سن الشباب على ما هي عليه من جمال ووضاءة ، وكانت معروفة بالعقل وبُعد النظر ، لذلك رأت أن يكون جوابها متضمناً أعذارها ، فهي تقول عن نفسها: إنها غَيْرى مسنّة ، ذات عيال ، فأجابها عليه الصلاة والسلام بقولة : أما إنك مسنّة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، واما العيال فالى الله ورسوله (٢). وتزوجها صلى الله عليه وسلم ونقلها إلى بيت زينب بنت خزيمة ، وقد نالت ام سلمة مكانة راضية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بفضل درايتها وذكائها . فصبرها على غيرة سواها من الزوجات ومدارتهن أكسبها الرضى والارتياح ، ومشورتها على الرسول في مواطن هامة منحها الثقة في العقل والحكمة ، ومن ذلك مانقلته السيرة النبوية عن دورها يوم الحديبية إثر الصلح مع قريش وتقرير عودة المسلمين إلى المدينة والقدوم إلى العمرة في العام القابل ، وقد ظهر التلكؤ عند الكثير من الصحابة في تنفيذ أمر الرسول بنحر وحلق الشعر أو تقصيره تطبيقاً للنسك المقصودة في العمرة . وبالرغم من التأكيد عليهم فانهم كانوا يحسون في أنفسهم أسىً وحزناً حسب نظرهم – من عودتهم بغير أن يؤدوا العمرة ، فدخل على زوجته « ام سلمة» فذكر لها مالقي من الناس فقالت : يانبي الله أتحب ذلك ؟ ... أُخرُج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك » فاستجاب الرسول لمشورتها فخرج فلم يكلم احداً منهم كلمة حتى تنحر وحلق ،

---

(١) موسوعة آل النبي ص٣١٢ – ٣١٣ عن تاريخ الطبري ١٧٧/٢

(٢) السمط الثمين ص٨٩ – ٩٩.

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غما وندماً » (١) :

وكانت آخرَ مَن تُوفي من أمهات المؤمنين سنة إحدى وستين رضي الله عنها . وهي ابنة اربع وثمانين ودفنت بالبقيع (٢).

وكان من زوجات النبي الطاهرات زينب بنت جحش التي أنزل الله تعالى بزواجها تشريعاً في إباحة التزوج بزوجة المتبنّى . وهيّ زينب بنت جحش بن رئآل . زوجها لرسول الله أخوها أبو احمد بن جحش واصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم اربع مائة درهم ، وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها أنزل الله تبارك وتعالى قوله : (فلما قضى زيدٌ منها وَطراً زوجناكها) .....(الاحزاب ٣٧). وزينب قبل رسول الله كانت زوجة زيد بن حادثة مولى الرسول ومُتَبنّاه ، وكان الرسول يريد من هذا الزواج تحقيق تشريع إسلامي يزيل تقليداً وعرفاً سائداً عند العرب وهو ان زوجة المتبنى تحرم على المتبني . كما كان حريصاً على ازالة الفوارق الطبقية بين الناس ، ولكن زينب الشابة الهاشمية الحسناء حفيدة عبد المطلب وابنة عمّة الرسول التي رضيت بالزواج من زيد بن حارثة على مضض ولم تستطع صبراً على العيش معه وكانت تفخر عليه وتجفوه تتمنع عليه فاضطر إلى مفارقتها وكـــان اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم لها زوجة لمولاه زيد — في تقديـره — مصلحـة كبـرى لأ نـه عليه الصلاة والسلام يسن في هذا الزواج تشريعاً ،وحين علم بعدم ميلها إلى زيد — ترفعاً وتعالياً عليه لأ نه مولى وهي هاشمية شريفة — أراد ان ينقض هذا التقليد الجاهلي في نفوس أمته ويحطم الفوارق الطبقية وان يعلم زينب وأهلها بان زيداً « يليق بها شرفاً وعزة بالاسلام وانه في اصله العربي النقي يرتفع به إلى مصاف سواه من أشراف العرب وكان زيد مولى الرسول وخادمه ، وهو هدية خديجة — رضي الله عنها — وقد اعتقه الرسول وتبناه حسب اعتراف العرب ، وقام به إلى الملأ في مكة يشهدهم ان زيداً ابنه وارثا وموروثاً ، وكـــان يدعى زيد بن محمد وهو أول مـن اسلم بعد علي بن ابي طـــالب — كرم الله وجهه — لذلك فأن الرسول حين علم بتمنع زينب وأخيهـــا عبدالله

(١) السمط الثمين ص٩٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ج٧ص٥٣٥ .

من هذا الزواج لئلا يلحقهم العار بمصاهرة المولى – حسب عرف الجاهلية – اكد وجوب قبول هذا الزواج ، وحدثهما بوجهة نظره ولكنه كان يلمح فيهما تردداً وتمنعاً حتى قالت زينب : (لاأتزوجه ابداً وانا سيدة ابناء عبد شمس) (١) فنزل قول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً) سورة الاحزاب (٣١) فاستجابت لأمر الله تعالى ورضيت بزواجها من زيد (٢) وحين تزوجها زيد لم يهنأ معها بحياة لما هي عليه من إباء وصدود ، وكان يشكو أمره إلى الرسول فيقول انها تتعظم عليّ لشرفها ، وان فيها كبراً تؤذيني بلسانها (٣)» ورغم تصبير الرسول له لم يطق استبقاءها حين وجد منها الجفاء والهجر ففارقها بالطلاق .

ولكن الرسول الرؤوف الرحيم كان يحس في اعماق نفسه بالاسى والحزن على هذه الخاتمة في حياة زينب الزوجية ، وكان يلوم نفسه احياناً لانه كان سبباً في هذا الزواج غير الموفق ، وكان يتمنى لو امكنه ان يجبر كسرها ويخفف مصابها. ولكن الوحي الالهي ينزل بالفرج ويتلو آيات الله في تشريع آخر ، وهو زواج مالم تألفه العرب في قبول الزواج بمطلقة المتبني وان المنسوب بالتبني لايكون ابنا ولو تعارف عليه الناس . فيقول تعالى: (واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك مالله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه ، فلما قضي زيد منها وطراً زوجناكها لكي لايكون على المؤمنين حرج في ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا) (الاحزاب ٣٧).

حينئذ أرسل النبي إلى زينب من يبشرها بما قضى الله في أمرها ، فكانت البشرى لها خير نعمة من الله وفرجاً عظيماً تحوزه بتزويج الله لها من الرسول. وكان شأنها في الحالتين تشريعاً لحكم ينقض أعراف الجاهلية ويبدلها بمعاني المساواة بين الناس :

---

(١) السمط الثمين ١٠٧ – ١١٢ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ج٢ص١٨٨. طبعة بولاق .
وتفسير فتح القدير . محمد بن علي الشوكاني (١٢٥٠هـ) ط١ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٠هـ . ج٤ص٢٧٥.

(٣) السمط الثمين ص١٠٧ – ١١٢// .

وتشاء الارادة الالهية ان يكون في وليمة عرسها تشريع أدب اسلامي جديد وهو خاص بنساء النبي من وجوب حجابهن وسترهن عن المؤمنين وكان ذلك بعد ان طال المقام بالمدعوين إلى الطعام في عرس زينب ، وبعد انتهاء المأدبة بقي ثلاثة منهم دون طائل حتى ضجر الرسول من جلوسهم ، وكان يملكه الحياء من ابلاغهم بالانصراف فاضطر إلى الخروج من بيت زينب الى بيت عائشة ، وفي اثر خروجهم أبلغه أنس ابن مالك بخروجهم فعاد إلى بيت زينب ونزل الوحي بقوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبي إلا ان يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم ، والله لايستحي من الحق ، واذا سألتموهن متاعاً فأسالوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ومن كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده أبداً ،ان ذلك كان عندالله عظيماً) (الاحزاب ٥٣):

وروى الثقات عنها انها كانت صالحة تقية واصلة للرحم كثيرة الصدقة مدحها رسول الله صلى الله صليه وسلم إلى عمر بن الخطاب بقوله « إن زينب بنت جحش أواهة ، فقال رجل : يارسول الله ماالأواه ؟ قال الخاشع المتضرع (١) ثم تلا عليه الصلاة والسلام قوله تعالى: «إن ابراهيم أواه منيب» . سورة هود (٧٥)وكان زواجه بها في السنة الخامسة(٢)

وكانت تعتز أمام اترابها بان الله تعالى زوجها من رسول الله في محكم كتابه ، وانه عليه الصلاة والسلام قد قال فيها كناية عن سخائها وصدقتها « أسرعكن لحاقا بي أطولكن يداً » (٣) وتحقق وصف النبي بما اعلمه الله من ان زينب كانت أولى نسائه لحاقاً به في الدار الآخرة : وتوفيت في عهد عمر بن الخطاب سنة احدى وعشرين عن ثلاث وخمسين سنه رضي الله عنها (٤) :

---

(١) تفسير الرازي جـ٢٥ص٢٢٥ ط ١ التزام عبدالرحمن محمد .

(٢) السمط الثمين ص١١١

(٣) تاريخ الطبري جـ٢ص٥٦٢.

(٤) صحيح الامام مسلم جـ٧ص١٤٤

وفي السنة الخامسة للهجرة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار الخزاعية . وكانت من سبايا بني المصطلق من خزاعة ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الانصاري ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها فقال لها : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وماهو ؟ قال أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ، فقالت : نعم ، فتزوجها (١) :

والذي يلحظ ،في حكمة هذه النظرة النبوية انه صلى الله عليه وسلم كان قد خطط أبعادها في تأليف قلوب بني المصطلق مع سائر المسلمين بعد الغلبة عليهم وأسر الكثير من رجالهم ونسائهم واغتنام أموالهم ، فحين اختارها الرسول وبلغ أمرها أباها الحارث بارك هذا الاختيار وكان قد قدم المدينة لفدائها فأحسن الرسول وفادته وأعاد اليه ابنته فأسلم عن طيب قلب مع والدين من أولاده ورجال من قومه . وقد أصدقها أربع مائة درهم .

وحين تسامع الصحابة بنبأ زواج الرسول بابنة الحارث التي أعزها الرسول وأعز قومها بزواجها فتداعوا الى تكريم هذه السيدة التي صارت ام المؤمنين فأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها فأرسلوهم أحراراً وهم يقولون : « أصهار رسول الله » (٢) وكانت هذه الزوجة المباركة اعظم امرأة على قومها بركة ويمناً ، وصارت سبباً في عتق مائة بيت من بيوت بني المصطلق . تقول السيدة عائشة فيما يرويه ابن اسحاق : «فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها ...» (٣) وعاشت الى سنة خمسين من الهجرة وتوفيت بالمدينة(٤)وكان اسمها قبل زواجها بالرسول صلى الله عليه وسلم «برة» فأبدل اسمها الى جويرية » (٥) .

وفي نهاية السنة السادسة من الهجرة عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على غزو يهود خيبر : معقل اليهود الذين ماانفكوا يتآمرون على الدولة الاسلامية ويكيدون لها . وفي شهر محرم

---

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٧ص٥٣٦ .
(٢) السمط الثمين ص١١٦ – ١١٧ .
(٣) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٦ص٤٠٥ .
(٤ – ٥) وينظر اعلام النساء : عمر رضا كحالة ص٢٢٧ ط٢ – ١٣٧٩ – ١٩٥٩ .

مطلع السنة السابعة توجه إلى خيبر هاتفاً عند مشارفها « الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١).

وبعد فوز النبي على حصون خيبر وقتل محاربيها وسبى نساءهم وكان فيهن صفية بنت حيي التي ينتهي نسبها إلى هارون اخي موسى عليه السلام، وكانت في سن السابعة عشرة ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، ثم خيرّها في أن تكون زوجة له ؛ قائلاً : هل لك فيّ؟ قالت يا رسول الله : قد كنت أتمنى ذلك في الشرك ، فكيف اذا أمكنني الله منه في الاسلام؟! فاعتقها وتزوجها بعد جلائه من خيبر بستة أميال في موقع يدعى بالصهباء (٢). واولم رسول الله صلى عليه وسلم وليمة ما فيها شحم ولا لحم ، وكان سويتاً وتمراً (٣).

وحين وصل الرسول إلى المدينة واطلع أزواجه على صفية في ملاحتها وجمالها تحركت الغيرة في نفوسهن حتى قال بعضهن فيها قولاً جارحاً بانها تلك اليهودية! فاحزنها هذا القول، وحين بلغ الرسول قولهن لها عاقب القائلات بالهجر والنهي ، وطيب قلبها قائلاً لها : «انك لابنة نبي وان عمك لنبي وانك لتحت نبي» (٤). وكان صلى الله عليه وسلم يحبها ويحترمها لما يرى فيها من إخلاص وصدق وحسن ايمان، وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين من الهجرة ودفنت مع زوجات النبي في البقيع (٥).

ومن زوجات النبي الطاهرات ام حبيبة بنت ابي سفيان بن حرب التي كان لهانصيب شرف الهجرة الى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الاسدي .

وقد ارتد عن الاسلام هناك ومات على النصرانية وكانت قد انجبت منه حبيبة التي تكنى بها . واسمها رملة بنت ابي سفيان .

وفي مطلع السنة السابعة للهجرة ارسل الرسول صلى الله عليه وسلم الى النجاشي يخطبها منه ، فارسل النجاشي اليها بالبشري وسطلب اليها من توكله في تزويجها ، فارسلت خالد بن سعيد بن العاص فوكلته في امر تزويجها من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمهرها النجاشي عن الرسول اربع مائة دينار (٦) .

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف ج٢ص٢٣٧ غزوة خيبر – طبعة الوكيل عبد الرحمن

(٢ – ٣) السمط الثمين ص١٢٠ – ١٢١ وسيرة ابن هشام في الروض الانف ج٧ص٤٣٨.

(٤) السمط الثمين ص١٢٣ .

(٥) سيرة ابن هشام في الروض الانف ج٧ص٤٣٦ والسمط الثمين ص٩٧ – ١٠٩.

وكانت هذه الزوجة المباركة الشريفة قد نالت بهذا الزواج حظ التكريم من الرسول صلى الله عليه وسلم وفاء لهجرتها في سبيل الله ، وصبرها على مفارقة زوجها الصابيء : وشهدت المدينة فرحة عظيمة حين وافق قدوم وفد المهاجرين من الحبشة وفيهم جعفر بن ابي طالب وام حبيبة قبل دخول الرسول الى المدينة ظافراً منتصراً من غزوة خيبر حتى اذا رأى الرسول مستقبليه وفيهم ابن عمه جعفر وثب من فوق راحلته واعتنقه وقبل عينيه وهو يقول : «ما أدري بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ام بقدوم جعفر . ثم أجال نظره في جمع من مهاجري الحبشة مبتهجاً ومهنئاً ، وكانوا ستة عشر رجلا ، وكان فيهن مهاجرات منهن أم حبيبة التي سعدت بلقياه وهي تنتظر أن يحملها الى بيته بابتهاج وغبطة (١) .

كانت هذه الزوجة المؤمنة بحق لاتستطيع مجاملة او مصانعة على حساب عقيدتها ، فهي لم تتودد الى أقرب الناس إليها فيما يعود له ، يدخل ابوها أبو سفيان — بيتها مستجيراً فتمنعه من الجلوس على فراش الرسول قائلة «هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وانت رجل مشرك فلم أحب ان تجلس عليه » (٢) .

وكان هذا الموقف الاسلامي المتميز من ابنته ام المؤمنين حفصة وقبله موقف الصحابة في رفض قبول وساطة سيد قريش — ابي سفيان — كفيلا لتراجعه مخذولا الى مكة وهو ينذر قومه بالخطر المحدق بهم من غزو مكة حتى تهادي بنيانهم وتصدع تجمعهم في الحقد على الاسلام ، وخضعوا للرسول ودخلوا في الدين الحق وحسن اسلام ابي سفيان وقريش . توفيت ام المؤمنين — ام حبيبة سنة اربع واربعين واودعت مثوى البقيع مع امهات المؤمنين رض لله عنهن :

وفي السنة السابعة يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة لأداء عمرة القضاء التي كان ينتظرها بعد عودته من صلح الحديبية ، ويدخل مكة مع ألفين من أصحابه ، وتدوى بتلبيتهم أرجاء مكة ، ويخرجون بصفوف الأيمان الى فجاج مكة ودروبها والمشركون معجبون بهم في ايمانهم وطاعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم. وكان المشركون المكيون قد خرجوا من دورهم ليفرغوها للمسلمين فترة عمرتهم ثلاثة أيام لا حباً بهم بل إبعاداً لشبابهم وعامتهم عن مخالطة المسلمين حذر التأثير عليهم من المسلمين في العقيدة التوحيدية .

ولم يستطع زعماء المشركين من منع المسلمين المؤمنين الذين لم يهاجروا بل آثروا البقاء في مكة ولم يستطع المشركون إلحاق الاذى بهم ومنهم العباس عم الرسول، ومن هم في رهطه من المسلمين. ومنهم ميمونة بنت الحارث التي كان زوجها قد توفي وهو ابو رهم ابن عبد العزى. وهي في السادسة والعشرين من عمرها. وقد رغبت ميمونة أن يكون لها شرف الايمان والقرب من الرسول، فعرضت رغبتها إلى شقيقتها لبابة ام الفضل زوج عمه العباس، فتحدثت بذلك إلى العباس وجعلت له القول في تزويجها من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وحين عرض العباس أمرها على الرسول صلى الله عليه وسلم استجاب فرحاً بهذه المناسبة الميمونة، فخطبها له ابن عمه جعفر بن ابي طالب زوج اختها الثانية «أسماء» وأصدقها اربعمائة درهم. وحين بلغها طلب الرسول لها وكانت على بعيرها قالت : البعير وما عليه لله ولرسوله(١). فانزل الله تبارك وتعالى (وامرأةً مؤمنة إن وهبتْ نفسها للنبي إن أراد النبي ان يستنكحها) سورة الاحزاب (٥٠) وكان اسمها «برّة» فأبدل الرسول اسمها إلى «ميمونة» تيمُّناً بمناسبة عمرته ودخوله ام القرى بعد سبع سنين. وبنى الرسول صلى الله عليه وسلم منها بعد خروجه من مكة في موقع يدعى «سَرِف (٢)» قرب «التنعيم»(٣). وكانت هذه الزوجة المباركة مثالاً طيباً في التقوى والسماحة. ومن مآثرها المشهودة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيتها حين اشتد به مرض الموت، فانها كانت تعلم رغبته في أن ينتقل إلى بيت عائشة فاستجابت راضية طيبة القلب، وبقيت تذكر إكرام الرسول صلى الله عليه وسلم لها وتعيش ذكرى يومها الميمون الذي جمعها معه في البقعة المباركة في «سرف» حتى إنها أوصت أن تدفن في موضع قبتها فيها. ودفنت فيه حسب وصيتها بعد أن عاشت إلى سنة احدى وخمسين من الهجرة (٤). وروى صاحب الروض انها توفيت سنة ثلاث وستين (٥).

---

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٧ص٤٣٨ . وتفسير القرطبي حـ١٤ص٢٠٩ والسمط الثمين ص١١٤ - ١١٤.

(٢) (سرف) موضع على ستة أميال من مكة . تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث وهناك بنى بها وهناك توفيت(معجم البلدان حـ٣ص٢١٢-بيروت ١٣٧٦-١٩٤٧)

(٣) السمط الثمين ص١١٤ .

(٤) السمط الثمين ص١١٥ -

(٥) الروض الانف حـ٧ص٢٩

ازواج النبي اللواتي لم يدخل بهن

أما أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللواتي لم يدخل بهن فيقول ابن هشام عنهن : «وثنتان لم يدخل بهما : أسماء بنت النعمان الكندية، تزوجها فوجد بها بياضاً فمتعها وردها إلى أهلها. وعَمْرة بنت يزيد الكلابية، وكانت حديثة عهد بكفر، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم استعاذت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: منيع عائذ الله، فردّها إلى أهلها.. (١)» .

سريات الرسول صلى الله عليه وسلم

صارت السيدة مارية بنت شمعون القبطية سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبها له المقوقس؛ ملك مصر والاسكندرية في سنة سبع للهجرة مع اختها سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت مع هدايا أخرى واصلها من حفن من كورة أنصنا (٢) وهي التي انجبت له ابنه ابراهيم. وكان صلى الله عليه وسلم يعزها ويأنس بها كثيراً لحين إسلامها وطالما أثار ارتياحه وحبه لها غيرة نسائه حتى كاد الأمر يبلغ حداً كبيراً من القلق والمضايقة له منهن؛ ولكن الله تعالى حسم الأمر بعتاب الرسول حين حرّم مارية على نفسه إرضاء لهن؛ وأمر رسوله ان يوقف غيرتهن، وان يخيرّهن بين الله ورسوله وبين فراقه لهن. يقول الزمخشري : «روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا بمارية في يوم عائشة وعلمت بذلك حفصة فقال لها اكتمي عليّ وقد حرمت مارية على نفسي، وأبشرك ان أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي، فأخبرتْ به عائشة وكانتا متصادقتين، وقيـــل :
خلابها في يوم حفصة فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتم فطلقها ، واعتزل نساءه ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروي ان عمر قال لها : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك، فنزل جبريل عليه السلام وقال: راجعهافإنها صوّامة وانها قوامة لمن نسائك من الجنة ...»(٣). وقد نزل في هذه الحادثة قوله تبارك وتعالى مطلع سورة التحريم ،(ياأيها النبي لمَ تحرم ماأحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم و هو العليم الحكيم . وإذْ أسرّ النبي

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف ج٧ص٤٣٩
(٢) تفسير الزمخشري – أول سورة التحريم . وتفسير السيوطي في أسباب النزول اول سورة التحريم .
(٣) السمط الثمين ص١٤١—١٤٥

إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأتْ به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبّأها به قالت مَنْ أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير : إن تتوبا إلى الله فقد صغَتْ قلوبكما وإن تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) : سورة التحريم ١ — ٥ :

وحينئذ كانت مارية سرية عزيزة بتكريم الله تعالى لها في كتابه وتقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، والحرّة التي أعتقها ولدها إبراهيم ، فنالت مقام الفضل والتقدير ومنزلة أزواج النبي الطاهرات وتوفيت سنة ست عشرة من الهجرة وكان عمر بن الخطاب يحشر الناس لشهودها (١) :

وكان من سراري رسول الله صلى الله عليه وسلم (ريحانة) بنت عمرو بن خنفا بن شمعون ، وقد اصطفاها لنفسه بعد غزوة خيبر حين قضى على مقاتلة بني قريظة وسبى نسائهم . وكان منهن ريحانة التي أبقاها في ملكه في بيت أم المنذر سلمى بنت قيس : وقد خيرها الرسول صلى الله عليه وسلم بين أن يعتقها ويتزوجها وبين أن تبقى في ملكه فاختارت البقاء في ملكه ووصفت اعتذارها بالبقاء على الرق بأنه أيسر عليها حيث ترى في الحجاب الذي يفرض على أمهات المؤمنين شدّة ومشقة لاترتاح اليه. ونقل صاحب السمط الثمين روايات عدة انها اختارت الاسلام فأعتقها الرسول وتزوجها (٢).

ويقول ابن هشام: «وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يارسول الله بل تتركني في ملكك ، فهو أخفّ عليّ وعليك ، فتركها ، وقد كان حين سباها قد تأبت على الاسلام ، وأبَتْ إلا اليهودية فعزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجد في نفسه لذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه ، فقال : إن هذا لثعلبة بن سعية يبشرني بإسلام ريحانة ، فجاءه فقال يارسول الله قد أسلمت ريحانة فسرّه ذلك من أمرها» (٣) : وقد بقيت في ملك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى توفي عنها ، وقيل إنها توفيت سنة حجة الوداع :

---

(١) سيرة ابن هشام في الروض الانف حـ٢ص٢٤١ .

(٢) السمط الثمين ص١٤١ — ١٤٥

(٣) سيرة ابن شام في الروض الانف حـ٦ص٢٩٥ .

وكانت ذات حظ طيب عند الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان مستجاباً بها ،وكانت لاتسأله شيئاً إلا أعطاها ذلك .ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة لأعتقهم ، وكانت تقول : لم يَحْمِلْ بي حتى فرّق السبي ، ولقد كان يخلو بها ويستكثر منها فلم تزل عنده حتى ماتت في رجوعه من حجة الوداع فدفنها بالبقيع ، وكان تزويجه إياها في المحرم سنة ست من الهجرة.» (١).

حكمة تعدد زوجات النبي

وتبدو الحكمة واضحة في تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم :
وبخاصة بعد فقد زوجته الاولى — خديجة رضي الله عنها — وموت عمه ابي طالب ثم هجرته الى المدينة حيث أقام الدولة الاسلامية بآدابها وتشريعاتها : فقد وجه نظره الى الوسائل النفسية التي لها آثار ايجابية في حياة مجتمعه ودعوته : وتنوعت الدوافع التي تمثل حكمة تعدد زوجاته. فهو لم يتزوج بعد خديجة فتاة بكراً الا عائشة بنت احب الناس اليه بما عرفه فيها من نبوغ ونباهة كانت بهما تمثل مدرسة فقهية في حياته وبعد وفاته :
أما سائر زوجاته فقد دفعه إلى الزواج منهن عطف الكريم وتقدير النبوة لايمانهن وتضحياتهن في خدمة الاسلام وكن ارامل قد فقدن الازواج في ساحة الجهاد ؛ كحفصة بنت عمر بن الخطاب وام سلمة وأم حبيبة وكان منهن من فرض الله عليه الزواج بها تشريعاً وتعليماً لاحكام الاسلام كما هوالشأن في مشروعيةالزواج بزوجة المتبني.: وهي زينب بنت جحش وكان منهن من استدعت الدعوة الاسلامية تمكين صلاته بالمجتمع العربي القبلي الذي كان يتعارف على نصرة الاصهار (٢) : وهذه النصرة بالقبيلة التي تنتسب اليها الزوجة واردة ومقبولة في مجتمعهم ولها أبعاد ذات آثار طيبة في قبول الدعوة ونصرة صاحبه لما خلفته من الثقة بينها وبين اصهارها : وهذا ما حدث في زواجه بجويرة من بني المصطلق الذين اندفعوا جميعاً الى قبول الاسلام بفضل هذه الثقة والمصاهرة :
كما كانت هذه المجالات العديدة التي ارتبط بها الرسول بعوائل وقبائل شتى قد كونت

---

(١) السمط الثمين ص١٤٤ — ١٤٥ .
وينظر حياة محمد الرسول : رف — يود لي ترجمة عبد الحميد السحار ومحمد محمد فرج طبع دار الكتاب العربي بمصر . ص٢٤٨ — ٢٥٩
(٢) زوجات النبي الطاهرات : محمد الصواف ص٩ — مطبعة التفيض ببغداد .

له أنصاراً لدعوته في اول امرهم وآخره تزيدهم شرفاً ورفعة في منظور أعرافهم ثم في توسيع نطاق مسار الدعوة بعد ان رسخ الايمان في قلوبهم .

ولا يغب عن الذهن ان المرأة في المجتمع العربي حينئذ كانت تستوحي مفهومها الاجتماعي من الفطرة النقية والفهم الاصيل للحياة الزوجية فقد كانت احداهن تدرك ما تعارف عليه قومها من ان الرجال ليسو سواء . وان لها ان تختار من ترضى به ولو كان زوجاً لغيرها ، فهي تفضل — راضية القلب — ان يكون لها نصيب النصف اودونه من حياة رجل كفء على غيره — كاملا — إن كان غير كفء لها .

وكان هذا العرف عند العرب في جزيرتهم قديماً وحين جاء الاسلام أقره بحدود منتظمة وقصره بعدد معلوم. الإماستثني في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم مما أباحه الله له بحكمته،

وكان العرب يهدفون من تعدد الأزواج طلب الولد للاكثار بهم في النصرة والتباهي وتواصل العشيرة او القبيلة بأخرى للمساندة والمناصرة، وهذا قبل الاسلام. وحين نظمه القرآن جعله قضية تمليها الضرورة وتضبطها ضوابط الشريعة في عدالتها ووجوب حسن المعاشرة . لذلك لم يكن غريباً في بيت النبوة ان تتعدد الزوجات كما لم يكن غريباً على المجتمع الاسلامي كله أن يكون فيه هذا التعدد بهذه الحدود.

وقد نلاحظ أن أمر تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم يقدم لنا ملحظاً آخر في كونه لم تغلب عليه — صلى الله عليه وسلم — نوازعه البشرية في اختيار الزوجات. فهو لم يتزوج منهن بكراً الا عائشة وكان جميعهن أرامل ومنهن طاعنات في السن . وهذا الواقع يشكل دفعاً صادقاً لمفتريات المفترين الذين يدعون ان النبي قد اقترن بهذا العدد من الزوجات اندفاعاً لاشباع رغبته البشرية. فضلاً عما عرفه التاريخ الاسلامي من حرص ذوي هؤلاء الزوجات على الاقتران به تشرفاً بالانتساب إلى بيت النبوة واعتزازاً برسول الله الذي جعل من زوجاته — امهات المؤمنين — مدارس عملية في التعريف بآداب الشريعة الاسلامية وأحكامها، ورواية أخباره وسنته لأمته، وهو واضح في آلاف الاخبار التشريعية في كتب التفسير والحديث والفقه.

وإن خصوصية الرسول صلى الله عليه وسلم بالتزوج بأكثر من أربع زوجات كانت — كما اتضح مما تقدم — تهدف إلى أبعاد إيجابية وإنسانية رحيمة وإلى أغراض صارت هذه المصاهرة الزوجية ذات آثار متميزة على القبائل أو البيوتات التي صاهرت الرسول

صلى الله عليه وسلم فكانت أسرع من سواها في قبول دعوته أو منع الأذى عن المسلمين وبشعورهم بالتشرف بالانتساب إلى بيت النبي كانوا قدوة لغيرهم في قبول دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم: وقد شاءت إرادة الله تعالى بعد أن تحققت هذه الأغراض الإسلامية من تعدد أزواجه أن يتنزل القرآن الكريم بإعلامه بأن لايزيد على أزواجه غيرهن : ورسم له حياته الخاصة لأنها تمس حياة دعوته ولا تنفصل عنها : فقد كانت سورة الاحزاب شاملة لآداب هذه الحياة الزوجية وأحكامها فقوله تعالى:(ياأيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك :.) الأحزاب (٥١) جاءت الآية التالية لها توقف عدد أزواجه ولتشير إلى استيفاء الغرض المشروع من هذا العدد فقال تعالى: (لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج)..(الأحزاب—٥٣)وهكذا كان القرآن الكريم هوالذي يتولى تنظيم حياة النبي الزوجية ويعتبرها وظيفة إلهية لها حكمتها وأغراضها.

كما كان من الآداب الإسلامية الخاصة بحياة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أن يفرض الله تعالى عليهن الحجاب في قوله تعالى:(وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) الأحزاب (٣٤)

فجاء هذا الخطاب تشريفاً لنساء النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيماً لمقامهن وبيانا لهن وللامة الاسلامية بأنهن من حيث انتسابهن إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم يمثلن نوعية خاصة من النساء، وانهن لسن كسائر الناس(يانساء النبي لستن كأحد من النساء) (سورة الأحزاب —٣٣)بل إن الله تعالى أرادهن في موقع القدوة المثالية لحياة المرأة المسلمة ، وإن كلاً منهن تمثل مدرسة عملية في تأسي نساء المؤمنين بها. وقد كانت بيوتهن مرجع نساء المؤمنين ومجلس الفتوى في أمور الدين كله وبخاصة الأحوال الشخصية وقد حفظت لنا كتب السنة النبوية مئات الاحاديث في رواية أخبار النبي وسنته في الحياة الشخصية والعامة ،

وكان لهن المركز العظيم في نفوس المسلمين جميعاً لجلال مقامهن في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم: يقول القرطبي في تفسيره: ومعنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى ، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء ::: فأمر الله تعالى نساء النبي بملازمة بيوتهن وخاطبهن بذلك تشريفاً لهن ::: (١) .

(١) محمد بن أحمد الانصاري القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ١٤ ص١٧٩ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٤ — ١٩٦٤ .

مراجع البحث

١ ـ أساس البلاغة :الزمخشري ـ تحقيق عبد الرحيم محمود ١٩٥٣ ؛

٢ ـ أعلام النساء : عمر رضا كحالة ـ ط٣ ـ مؤسسة الرسالة ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ :

٣ ـ تاريخ الرسل والملوك :الامام الطبري ـ دار المعارف بمصر ١٩٦١

٤ ـ تفسير الجلالين :السيوطي ـ مطبعة الملاح بدمشق ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤

٥ ـ تفسير الرازي :الطبعة الاولى تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٣٥٢ ـ ١٩٣٣ ٥

٦ ـ تفسير القرطبي :طباعة دار الكتب المصرية ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥

٧ ـ حياة محمد : (. ق. بودلي ط١ ـ ١٣٤٦ ـ ١٩٢٨ ترجمة عبد الحميد السحا مطبعة محمد راغب الطباخ الحلبي

٨ ـ الروض الانف :السهيلي ـ تحقيق عبد الرحمن الوكيل :

٩ ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين : محب الدين الطبري (ت ٦٩٤)

١٠ ـ سيرة ابن هشام في الروض الانف ـ تحقيق عبد الرحمن الوكيل

١١ ـ صحيح الامام مسلم : مطبعة محمد صبيح ٥

١٢ ـ فتح الباري : ابن حجر ؛ للطبعة الاولى؛

١٣ ـ فتح القدير : الشوكاني ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٠هـ

١٤ ـ القاموس المحيط : الفيروز أبادي ـ دار العلم للجميع ـ بيروت ٥

١٥ ـ الكشاف : الزمخشري ـ مطبعة بولاق ١٢٨١هـ ؛

١٦ ـ لسان العرب :ابن منظور ـ الطبعة المصورة عن بولاق ٥

١٧ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي ـ دار بيروت للطباعة والنشر ٥

١٨ ـ موسوعة آل النبي : عائشة عبد الرحمن ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت الطبعة الاولى سنة ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ ٥